أخي دانيال

للكاتب الفرنسي لاديسلاس دورمانجي
ترجمة : عائدة مطرجي إدريس

اقسم انها ليست غلطتي ، انني لم المسه ، حتى ولابطرف اصبعي . انه هو الذي انزلق في الساقية . لم يكن في نيتي الذهاب الى الطاحونة . ان دانيال هو الذي اراد ذلك . لقد هزيء بي ، وقال انني كنت جباناً ، وان احداً لن يعرف ذلك ، وان الزوارق تسبح قرب الطاحونة خيراً مما تسبح في مكان آخر . لقد نجح دائماً في فرض ارادته على الآخرين ، حتى حين كان طفلا صغيراً . وكنت اذا رفضت اطاعته ، انحوا علي باللائمة ، وكان ابي يقول :

– انت الكبير ، وعليك ان تكون اعقل منه .

اجل ، انني انا الكبير . في هذا الصيف بلغ دانيال السادسة ، وعما قليل سأبلغ الثامنة ، ولكن هذا لا يكفي لكي اكون دائماً على خطأ .

كنت في الثانية حين ولد دانيال ، واني اتذكر ذلك جيداً . لقد كانوا يدللونني انا قبل هذا الحين ، وكان أبي ، بعد العشاء ، يجلسني على ركبتيه لنلعب لعبة الفارس والفرس . فكان يصيح وهو يقهقه :

– هوب لا هوب لا .. ايها الجندي الصغير !

ثم كانت امي تنزع عني ثيابي ، وتجلس على حافة سريري فتقص علي حكاية . وكان أبي يغادر الغرفة ، ويتركنا وحدنا ، امي وانا . وكانت تحدثني غالبا عن « المركب الشبح » . انها قصة لا تنتهي ابداً . في اللحظة التي كان الغرق فيها يبدو محتوماً ، كانت المياه تهدأ ، وكان القبطان يرفع الشراع فيمضي المركب . وحين كان دانيال صغيراً جداً ، كان ينام في غرفة والدي ، وكانت طاولة امي الليلية قد ازيحت لافساح مكان للسرير . وحين كان يستيقظ في الصباح كان بامكاني ان ادخل لانظر اليه . لقد كان لطيفاً ، ولكنهم لم يكونوا يسمحون لي بان المسه ، لانه كان سرعان ما يصيح ، ولا ادري لماذا . فانني لم أكن أؤذيه ، ولم اكن اضغطه بشدة ، ومع ذلك فقد كان يبدأ بالصياح حالما كنت اقترب منه ، وكانت امي تقول انني كنت لا احسن التصرف معه ، وكان هذا يؤذيني لاني كنت احب كثيراً دانيال .

وفيما بعد ، اذ بدأ يمشي ، انزلوا من العنبر السرير المسور الذي سبق ان نمت فيه انا ايضاً من قبل . وفي ذلك الحين كان سريري الخاص بلا حواجز ، لانني كنت قد انقطعت عن شدة الحركة في الليل ، ولكن السرير كان مع ذلك يخصني ولم اكن اريد ان يسلبوني اياه .

وكانت امي تعلق على ذلك بقولها : – انت غيور

لا . لم اكن غيوراً . وانما كنت بكل بساطة غاضباً بعض الشيء لانني كان علي ان اتنازل لدانيال عن جميع حوائجي ، لا عن السرير فقط ، بل عن ثيابي ولعبي . انني مثلا اذكر الحصان المتحرك ، فان كنت لا اريد ان يركبه ، فان ذلك لم يكن بدافع الغيرة ، وانما لانه لم يكن يعرف ان يتماسك فوقه . فقد كان يتعلق برقبته بكلتا يديه وينتزع شعر رأسه . وعبثاً حاولت الاحتجاج ، فقد كانوا يركبونه عليه ، وكان يزيد الطين بلة انه كان علي أنا ان ارجحه ، وكان يقع بالطبع فيوبخونني ويقولون انني كنت ادفعه باقوى مما ينبغي . بل حدث مرة ان الدم نزف من انفه ، فضربني ابي ، هنا خلف اذني ، وقد ضربني بشدة ، ولكنه لم يبالغ ، على ان ذلك قد اوجعني . كان الجميع يدللون دانيال ، وكان كل شيء يعمله رائعاً ، هائلا ، عجيباً . كانوا يعجبون به هو ، اما انا فمهما فعلت ، فقد كانوا يجدون ما ينتقدون علي . كان البرج الذي يبنيه اعلى من برجي ، وكان قطاره الحديدي يسير اسرع من قطاري ، وحين كنا نلعب لعبة الحظ كانوا يتقصدون الغش لكي يربح هو . وحين كانت النساء يزرن امي ، كانوا يلبسونه ثوباً ابيض ويدخلونه الى قاعة الطعام من أجل ان تراه السيدات . اما انا فلم يكن احد يفكر في استدعائي .

وبعد ذلك بقليل اصبحنا صديقين حميمين ، دانيال وانا ؛ وكنا نذهب صباحاً الى المدرسة واحدنا يمسك بيد الآخر ، وعند الظهر ، اذا خرج احدنا قبل الآخر ، كان ينتظره تجاه الباب جالساً على المقعد . وكانت امي توصيني بان انتبه جيداً لأخي الصغير ، لكن ذلك كان بلا فائدة ، فان دانيال كان خفيفاً جداً . كان يقذف الكرة الى ابعد مما اقذفها . وكان الصبيان يتنازعون ليحظوا برفقته ، وفي طريق عودتنا الى البيت كان هو الذي يختط طرقاً جديدة . كان شديد الولع بالتيهان والوقوف امام الواجهات . وبالطبع حين كنا نتأخر بالعودة ، كنت انا الذي اتلقى عبارات التوبيخ .

وكان المعلم هو ايضاً يفضل دانيال الذي تعلم القراءة والكتابة اسرع مني ، وحين ذهبت امي لتسأله عما اذا كنا تلميذين صالحين ، اجاب بان دانيال كان عبقرية حقيقية . ولم اكن اعلم بالضبط ما معنى هذا . كنت اظن ان الأمر هو امر اكليل يحيط برأسه ، ولكني فتشت عن هذا الأكليل من غير ان اجده ، فلم يكن ثمة شيء حول رأس دانيال . اما انا فان المعلم لم يقل عني شيئاً ، ولعل امي نسيت ان تسأله عني ، على انني لم أكن احسد على دانيال فقد كنت اعلم انه اشطر مني .

وامس حين دخلنا الى الصف اخبرنا المعلم انه لا درس غناء اليوم ، وان بامكاننا ان نذهب فخرجت مع دانيال ، حتى اذا وصلنا منعطف شارع ، رأيته يدلف الى طريق لم اكن اعرفه ولم ادرك اين كان يقودني الا حين اوشكنا ان نصل الى الطاحونة ، ففكرت اذ ذاك ان من الخير ان ابقى معه وان اراقبه حتى لا يرتكب حماقة ما .

* *

وكان الطحان هو الذي اعادنا الى البيت . وكان في السيارة رجلان آخران . ولقد سألاني عن اسمي وعن عنواننا . وحين وصلنا الى البيت ، طرقت الباب ثم اختبأت وراء الرجال ، وقد رفع الطحان قبعته وقبل يد امي حين فتحت

الباب ولم اسمع جيداً ما كان يقول، وكل ما رأيته ان امي رفعت يدها الى قلبها واخذت تطلق صيحات طويلة . وحمل الرجال دانيال الى الغرفة ووضعوه على الديوان ، وكان الماء يسيل من ثيابه ، فيخلق على السجاد من اقدام الرجال آثاراً متبلة.

ثم وصل ابي.ولا ريب في انهم قد اتصلوا به هاتفياً في مكتبه ، فرقي الدرجة قفزاً حتى اذا بلغ اعلاه كان يلهث ، ولقد اراد الطحان ان يقول له شيئاً ولكنه لم يصغ اليه . بل ابعده بيده ودخل الى الغرفة . ورفع طرفاً من الرداء الذي كان قد غطى به دانيال ثم انخرط باكياً . ولم يكونوا قد اعطوه التفاصيل مسبقة ولعله كان يظن انني انا ..

وانفردت امي في غرفتها ومكثت فيها طوال النهار من غير ان تأكل شيئاً ، وكذلك لم يأكل ابي شيئاً، ولم يكن يكلمني. كان يذرع غرفة الطعام ذهاباً واياباً ، فيجلس ويتناول جريدته التي لم يكن يقرأها ثم ينهض ويستأنف الغدو والرواح ، وبعد الفطور اقتربت لأشرح كيف حدث ذلك . ولكنه هز رأسه واشار الي ان ادعه وشأنه.على ان الطبيب اذا جاء متأخراً ، فليست هذه غلطتي . لقد حاولت الصياح طويلا حين سقط دانيال في الماء ولكني لم استطع.وقد فهم الطحان فوراً ما كان يحدث فاتى يحمل قصبة طويلة معقوفة. وكان الماء سريعاً جداً وشديد السواد في هذا المكان . وانفقوا وقتاً طويلا قبل ان يعثروا على الجسم . ولقد مدده الطحان على العشب ، ثم ركع ووضع اذنه على صدر دانيال . ثم بدأ يطوي له ذراعيه وساقيه ويقلبه ويهزه . وكان الماء يتدفق من فم اخي ، ولكنه لم يكن يفتح عينيه . وصاح الطحان بي ان اركض الى الطاحون واقول لامرأته ان طفلا قد غرق وان عليها ان تتلفن فوراً للطبيب.ولقد عدوت باسرع ما كنت استطيع ولكني كنت شديد الخوف فضللت الطريق ، كنت ابكي ولم اكن استطيع ان ارى شيئاً . ولقد وقعت في حفرة مليئة بالاوراق الجافة، فرضت قدماي، وها انا الآن اعرج . ولكن لم يسألني احد متى اصابني هذا . وكان باب الطاحون مغلقاً، وكانت الريح تحدث ضجة عظيمة ، فصحت طويلا قبل ان يفتحوا لي .

وبعد الظهر اتممت فروضي بالرغم من ان احداً لم يقل لي ان افعل ذلك ، ولقد اجتهدت كي لا تقع فيها اغلاط ، ان اهلي ليس لهم بعد غيري ، ويجب ان انتبه لكي لا اجلب لهم الهم. ولم يقدموا لي شيئاً آكله عند العصر ، وكانت العادة ان تأتيني امي بشيء في ذلك الحين، ولكن لابد انها قد نسيت ، وفتحت باب غرفة الطعام فلم ار غير ابي الذي كان ما يزال جالساً على الكرسي نفسه ، فنظر الي بقسوة فلم اجرؤ على ان اقول له اني جائع .

ولقد بنيت جسراً بلعبتي الآلية ولكن لم اكن راغباً في ان العب وحدي وكنت ضجراً بعض الشيء ، لم اكن اريد ان افكر بدانيال ، واذ ذاك عزمت على ان ارتب كتبي .

ولم اكن قد اضأت النور ، فدخل ابي والظلام هابط . ولم يسألني عما كنت افعله وكل ما قاله لي ان انام . وسألته: هل بامكاني ان اذهب فاعانق امي ؟

ولكنه اجاب: دع امك وشأنها فأنها تشكو الصداع

دار الآداب تقدّم

فؤاد الشايب

مؤلف « تاريخ جرح »

يطلع على القراء العرب

بعد صمت عشرة أعوام

بقصة كل موظف عربي

● مأساة نفس في صراعها مع عبودية الأقدار

● حكاية جيل يبحث عن مثله

● حياة تروى وقائعها يوماً بعد يوم في أوراق خلفها وراءه موظف

يصدر قريباً

وعند ذلك لجأت الى فراشي ولم اكن ناعساً ولكني نمت حالا ، وحين فتحت عيني كانت الغرفة مغمورة بالنور. ولقد ادهشني ان يمر الليل بهذه السرعة. فكم كنت اود ان احلم بدانيال. ان احلم بشيء جميل استطيع ان ارويه لأمي . ولكنني لم احلم بشيء ولذلك فلن اقول شيئاً لأني لا احب ان اكذب. ولقد حاولت ان اتصور ان ما حدث بالامس في الطاحونة لم يكن الا حلماً ، ولكنني لم استطع ، كنت حين ارفع رأسي عن وسادتي ارى ان سرير دانيال كان خالياً.

ولاحظت ان باب غرفة ابوي كان خلافاً للعادة مفتوحاً . ولقد سمعتهم يتحدثون وحسبت انهم ينطقون باسمي . وامسكت انفاسي ولكنهم كانوا يتحدثون بصوت منخفض. والقيت عني الغطاء ووضعت قدمي على الأرض وانا جالس على حافة السرير ، ولكن لم يأت الي احد ، عند ذلك نهضت واقتربت من الباب على مهل ، كان في البيت ناس لا اعرفهم ولم ار ابي ولا امي. ولم ينتبه الي احد . وقلت في نفسي ان الطبيب قد بعث دانيال من جديد وانه لم يغرق حقاً وان شيئاً لم يحدث وان امي تهم بان تصيح :

– هيا ايها الاولاد ! ان الغداء جاهز !

ثم نذهب انا ودانيال الى المدرسة ممسكاً ذراعه بذراعي كما كان شأننا دائماً.

ولكني رأيت الناس يحملون شيئاً كانوا يغطونه برداء ابيض ثم وضعوه في صندوق كبير .

وشعرت ببرد وانا واقف في زاويتي ، وبالم في حلقي ، انهم لا يهتمون الا بدانيال بالرغم من انه قد مات.

وانقضى وقت طويل قبل ان ينتبه ابي الى وجودي ، وتوجه نحوي ، فالتصقت بالجدار لانني لم ادر ما كان يريد بي حين مد يده ، اكان يريد ان يلامس وجهي برفق لأنه كان يرى عليه حزني لفقد دانيال ، ام انه كان يريد ان يضربني ؟

ولم يضربني ، ولم يلامس وجهي برفق ، وكل ما فعل ، ان لمس كتفي وهو يدفعني قليلا ، وقال لي :

– اذهب الى السرير حالا واغلق الباب .

وعدت الى غرفتي ، لكنني لم اجلس في السرير. ولقد ذرعت الغرفة كما رأيت ابي يفعل ، ثم توقفت والصقت اذني بالباب. لقد حمل الرجال التابوت وسمعت صوت الطحان وخيل الي انه يتحدث عني .

لا ، ليس هذا صحيحاً ، فلست انا الذي دفعه. ان الطحان لم ير الحادثة على حقيقتها ، او انه يريد الاساءة الي ، لان الحادثة وقعت بالقرب من بيته ، وانه يخشى ان يعاقب. حين اخبرنا المعلم انه لم يكن ثمة درس للغناء الحمت لكي نعود الى البيت. ولكن دانيال لم يشأ ان يسمعني . واخذ يركض فاضطررت الى اللحاق به ، وكانت الأرض زلقة على حافة النهر ، ولم يكن هناك غصن يمكن التعلق به ، ولقد اراد دانيال ان يلعب هناك بالذات .

اوه ، ان هذا ممكن .. حين كنا راكضين ، ربما حدث ان لامس كتفانا ، لأن الممر كان ضيقاً ، ولكنني لم ادفعه انا ، هذا غير صحيح .. هذا غير صحيح ، وما كنت لأجرؤ على ذلك ، فانه كان اقوى مني. عندما انزلق حاولت ان امسك به . وربما خيل اليهم من بعيد انني كنت ادفعه ، ولكن الطحان رجل كاذب. لقد اردت ان امسك اخي ، بل اني صحت عالياً : « حذار »

اقسم اني لم ادفع دانيال الى الماء ، ولماذا تراني كنت اريد ان يموت وانا احبه ذلك الحب ؟ انني لن اجد في حياتي بعد الآن رفيقاً طيباً كدانيال المسكين .

ترجمة : **عائدة مطرجي ادريس**

الثريات الانيقـــــة

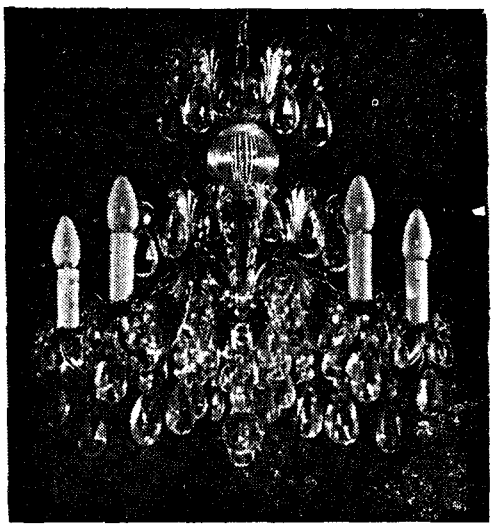

والاواني الجميلة

تجدونها في معارض

كمال وشركاه

جانب اوتيل بريستول – بيروت